لماذا يريد البعض إقناعنا بالهزيمة؟

د. خالد الطراولي*

■ عندما تتصفح الصحف العربية ومواقع الانترنت تلاحظ كمّا مستفيضا من الكتابات والتحليلات التي صاحبت أو أعقبت الأحداث الأخيرة في لبنان، وهذا يؤكد على خطورة ما وقع لدى المثقف العربي وتعبير سليم على حركية ثقافية وهمّ وطني وقومي استجابت له النخبة والجماهير على السواء. غير أن ما يسترعي الانتباه هو الاختلاف البيّن بين طرفين في تقييم الأحداث ومآلاتها ونتائجها، مما شكل خندقا بين طرفين واضحي المعالم والخلفية والمرجعية الفكرية والسياسية:

1 ـ طرف اعتبر الأحداث الأخيرة هزيمة لاسرائيل وخيبة لأمريكا وانتصارا واضحا للمقاومة، حيث تمثل عناصر الصمود والمواجهة والحاق الخسائر والضرر بالطرف المقابل، تأكيدا جليّا على الغلبة، زيادة على الهزة النفسية التي أحدثتها المقاومة لدى الفرد العربي والمجموعة، بنهاية أسطورة الجيش الذي لا يقهر والعربي الذي لا يعرف الا طعم الهزائم. وحسب هذا الطرف فقد أنتجت المقاومة عبر صمودها تغييرا كليا في الموازين وأعطت دفعا لتشكّل شرق أوسط جديداً تكون المقاومة في مستواها العقلي والثقافي والميداني رأس الحربة في تغيير المعادلة القديمة واثبات قواعد لعبة جديدة. بل ان البعض يذهب الى أن هذه الرجة يتجاوز مداها الشرق الأوسط وما يدور في فلكه من مصالح وتحالفات وسياسات، الى أبعاد حضارية واستراتيجية تهم الأمة العربية والاسلامية عموما في علاقتها مع ذاتها ومع الآخرين.

2 ـ في المقابل فقد ظهر فريق آخر سعى بكل جهد الى التشكيك في انتصار المقاومة مستعرضا بكل قوة ما آلت اليه الحرب من تدمير للبنان والحاق الأذى بأهله وذويه، وما حاق باللبنانيين من قتل وجرح وتشريد. وكانت جلّ التخمينات والتفسيرات لهذه الهزيمة تحوم حول طائفية المقاومة وبعدها الشيعي، ومرجعيتها كحركة اسلامية تحمل مشروعا أصوليا، وحول البعد الاقليمي للحدث حيث تأتي قضية العلاقة مع ايران في المرتبة الأولى لمحاولة سحب عنوان الوطنية عن المقاومة، فكانت مصطلحات الأجندة الايرانية و المصالح الاقليمية حديثا يعاد حدّ القرف في كل مقال ومقاربة.

أن تأتي الغمزات واللمزات من ضفاف غير ضفافنا فهذا ليس عيبا وليس جديدا، أن يدافع الطرف المقابل، والذي يعادينا، عن أطروحاته ومقارباته، فهذا من طبيعة الأشياء المتنافرة، أن يعلن الرئيس الأمريكي عن هزيمة المقاومة، ويصرح أولمرت منذ الأيام الأولى للحرب أن الانتصار قد تحقق وأن المقاومة قد ذهبت الى غير رجعة... فهذه هي السياسة ودوافعها وأهدافها، وهذه هي الحرب وأبعادها ومصالحها، كلّ يدافع عن نصيبه في قطعة الحلوى، كبر أو صغر حجمها، منهم من يريد شرق أوسط جديدا ولو على بساط من دماء ومن صرخات الأطفال والنساء، ومنهم من يرى خطرا على وجوده وكيانه يجب استبعاده ومحقه... أن يأتي كل هذا من الضفة المقابلة فلا ضير فكل يحمي رغيف خبزه ولكن...

أن يسكن البعض حارتنا ويشاركونا طعامنا ويقاسمونا أحلامنا وآمالنا، ويحملون هموم أوطاننا، ويركبون نفس السفينة التي تناطح الأمواج العاتية والرياح العاصفة في بحر لجي مظلم يجمعنا... أن ينطلق هؤلاء في اقناعنا بانتصار الآخرين وهزيمتنا، فهذا يستوجب وقفة وتأملا واستفهاما!

لن نصادر آراء الناس فهذا حقهم المشروع في تبني ما يشاؤون، والاختلاف رحمة وعنوان أصيل للحرية والابداع، فاحترامنا للتعدد مبدأ متأصل في رؤانا ومقارباتنا ولا يزعزعه أي تطرف ومغالاة عند مخالفينا، غير أن الاحترام لا يلغي النقد، والتعدد لا يرد عدم فهمنا ورفضنا لما حملته هذه الأقلام هذه الأيام من محاولات يائسة لاقناعنا بالهزيمة.

ان من يحاول البحث عن الخلفية الفكرية والسياسية لأصحاب هذه المقولة الداعمة لفرضية الهزيمة، يجد أن أصحابها يغلب عليهم اما الطابع الليبرالي الى حدود ما يصطلح عليه بالليبراليين العرب الجدد، أو من طرف صغير من اليسار العربي، وخاصة في بعض البلاد العربية حصرا. ولعل من الغريب أن يجد كل طرف اطارا ورقيا أو على الانترنت محالفا أو داعما بصفة مباشرة أو غير مباشرة لحمل أفكاره وبثها بين الجمهور... اما انتصارا للمقاومة أو التشكيك في النصر واعلان الهزيمة!

1. الاسلام السياسي الغول الأكبر

لعل المتابع للجبهة المركزة على الهزيمة في كتاباتها و عند أصحاب أقلامها يلاحظ هذا الخوف المبالغ فيه من الاسلام السياسي حيث ظهر انتصار المقاومة دفعا لانتصار الحركات الاسلامية مما جعل البعض يستغل التطورات الأخيرة للسقوط مجددا في حملة تشويه وتخويف وترويع، ومحاولة فتح ملفات فكرية ونظرية سابقة، نالها التناظر والتدافع بين الاسلاميين من جهة، واليسار والليبراليين الجدد من جهة أخرى... فخرجت الى السطح قضايا المرأة والحريات العامة والخاصة والديمقراطية والتعدد، واختلط الحابل بالنابل وكأننا نعيش أيام النقاشات والحوارات في الجامعة أو في النوادي والمؤتمرات.

ان هذا الانحراف في مستوى الموضوع واشكاليته، نحو مناطق خاوية لا يستدعيها أبدا الموقف ولا المسؤولية الوطنية أو القومية ولا الظرف الحساس، يظهر في الحقيقة هشاشة طرح الهزيمة وعدم وجود البراهين والحجج الكافية والصلبة لدعم هذا المنطق وهذا الطرح.

ليست مهمة هذا المقال الدخول في محاورات حول هذه القضايا العامة التي استعملت اليوم في غير موطنها للتجاذب والتناظر، غير أننا نشير الى أن الجبهة الحالية المفتوحة كانت فرصة تستغل لتقارب الآراء دون التخلي عن مقاربات كل طرف، وتوظيفها لتجميع القوى في نسج مشاريع معارضة داخلية موحدة لهذه الأوطان بعدما برز العجز الحالي للأنظمة في نهوض شعوبها وتنميتها، و بعدما ظهر للعيان ضعف المعارضات الداخلية، أو استبعاد أقواها جماهيريا عن التواجد الشرعي وتركها وراء الباب.

نعم ربح الاسلام السياسي هذه الجولة والتي سبقتها، رغم نسبية هذا الربح وهشاشته وارتباطه بمدى الوعي والكفاءة والفقه بالمرحلة، ولكن أليس الأولى والأحرى والأنجع أن يتساءل أصحاب الطرح اليساري والليبرالي عن أسباب ضمور مقارباتهم وتهافتها وسقوط جماهيريتها، وغيابهم الكلي عن مواطن الفعل المباشر في الصمود الميداني والمقاومة؟، أليس الأنجع لهذه الأطراف أن لا تسبح ضد التيار وهي ترى وقوف الجماهير العربية والاسلامية بكل طوائفها ومذاهبها حذو المقاومة وأطروحاتها.

ان أكبر خسارة سوف تنال الليبراليين العرب الجدد وبعض أطراف اليسار هي زيادة فقدانهم لمصداقيتهم أمام الجماهير حيث بدا للعيان خطأهم المنهجي، وغلبة الخنادق الأيديولوجية على المصلحة الاستراتيجية للأمة في طرحهم وفي مقارباتهم. ان شرعية الوجود من شرعية الفعل، وان جماهيرية الموقف والممارسة، من مصداقيتهما، ولا نخال مواقف الانسحاب والتشكيك وممارسات التقوقع والأنا الا محطات النهاية ولو بعد حين!

2. المحور الايراني والأبعاد المنسية

في صولتهم في اقناعنا بالهزيمة استند هذا الفريق الى حجة دخول البعد الاقليمي وبروز ايران كمحرك أساسي يلعب ورقة داخلية على حساب بسمات أطفال مغتصبة وديار محطمة وأكثر من مليون مشرد. كان توظيف هذه الحجة يعاد في كل مقال وورقة حدّ القرف، ولن ندخل حقيقة في هذا المد والجزر الذي يتبع حركات أقمار ونجوم من غير أرضنا، ولكننا ننبه الى أنه لا يجب أن ننسى أو نؤجل البعد الاستراتيجي في مواقفنا، أن نختبئ وراء أصابعنا ونعوّل على التكتيك والبعد الحيني، ونرجئ مصلحة الأمة والأجيال القادمة من أجل بعض الفتات على موائد غير كريمة.

ثم ما الضير الذي سيلحق بالأمة ان كان هناك بعد اقليمي للقضية، وكأنها لا تحمل الا جانبا قطريا ضيقا لا يتعدى حدود لبنان الصغير، ونحن نرى المشاريع الخاصة والعامة، وأطروحات تغيير مناطق جغرافية كاملة بتضاريسها التاريخية والأيديولوجية والطائفية، وقنابل ومعدات حربية تحمل نجوما متعددة وموصولة بأوطان تبعد الأميال عن حيّنا.

لم أفهم هذا التأكيد المتواصل والمخيف من البعد الايراني في أطروحات الليبراليين العرب الجدد وبعض قوائم اليسار، سوى الخوف بالمساس بالواقع الحالي من أنظمة تفقد الشرعية وشعوب تحت الحصار. فحالة الاستبداد والحنق الداخلي والتململ الجماهيري الذي أحدثه انتصار المقاومة، من شأنه تعميق الشروخ داخل النظام السياسي العربي والدفع بوجود ارهاصات توجهات استراتيجية جديدة وهامة:

أولا: منحى قطيعة بين الجماهير وأنظمتها على أساس الموقف الايجابي أو السلبي من المقاومة، وهو خندق تلتقي فيه الجغرافيا والتاريخ والعقل والنقل والفكر والوجدان. لذا يبدو التراجع النسبي للمواقف الأولية التي تبنتها بعض الدول من الحالة اللبنانية واعتبار البعض مؤخرا أن انتصار المقاومة هو دفع للنظام السياسي العربي على حد تعبيرات الرئيس اليمني، يعتبر هذا التوضيح اعترافا بالقلق من مواجهة جماهير يبدو أنها أكثر عقلانية ورشدا وفهما استراتيجيا من حكامها. لكن هذه المواقف المتأخرة لا تلغي أزمة الثقة ولا تنهي القطيعة ولكنها تبطئ بعض الشيء مآلات أصبحت نهائية.

ثانياً: وجود حلم راود الجماهير ولا يزال حول نهاية عهد الذل والهوان والدخول في التاريخ من جديد واللقاء مع أطراف مضيئة من حضارة آباء وأجداد ظلت لعقود منسية أو مظلومة، كانت هذه الآمال تظهر بعيدة نظرا لعمق مأساة التخلف ورعايته من قبل الداخل والخارج على السواء، ولبعد المسافة وضخامة اعادة البناء. ولقد حاولت عديد المرجعيات والسياسات من قومية وبعثية وشيوعية وليبرالية التي وصلت عتبة الحكم، تنزيل هذه الأحلام على الواقع ففشلت، بل عمّقت الخيبات وتتالت الهزائم ودخلنا عهود النكبات والنكسات ولم نخرج منها الى اليوم.

الجديد في هذه الأيام أن جانبا من هذا الوجدان قد وجد ضالته على أرض الواقع، محمولا على أيد جديدة وفي أحضان مرجعيات أخرى، فالتقى الوجدان الضائع مع ممارسات ميدانية حقيقية وملموسة تحملها حركة ومشروع ورموز. هذا اللقاء بين الجماهير المكبوتة ووقائع وردية ملموسة وحركة سياسية تحمل مشروعا متكاملا يمثل نقلة نوعية في المواجهة بين الأنظمة الموجودة وجماهيرها التي وجدت الرمز المفقود، والعربي بثقافته يهوى الرموز، وحصلت مجددا على الثقة المفقودة في ذاتها أولا وفي غياب السند الداخلي ثانيا والذي يمكن أن تمثله مجددا الحركات الاسلامية المعتدلة، مما يغير كلية المعادلة الداخلية حيث لن يكون سهلا للأنظمة الاستفراد بهذه الحركات السلمية وتهميشها أو سجنها وتشريدها أو ضربها واستئصالها وقد أصبحت قطبا له مصداقية الفعل والانتصار وشرعية المساندة الجماهيرية العلنية. كما سيصعب مستقبلا استخفاف الجماهير وتركها بعيدة عن هموم الأوطان، وهي التي كانت بين خوف ولا مبالاة وخروج يتيم وتطرف.

ثالثاً: وهو الأكثر أهمية وفرادة وتساؤلات، ففي مقابل هذه القطيعة بين الأنظمة العربية وجماهيرها ينسج في المقابل بخيوط من حرير محور عجيب يلتقي فيه عنصر الدولة وعنصر المجموعة وعنصر الجمهور، لأول مرة حسب زعمنا يتحالف مشروع دولة (بسلبياتها وايجابياتها) مع مشروع معارض ينطلق من زوايا المجتمع المدني (بسلبياته وايجابياته) مع مشروع جمهور، مع مشروع أمة، حيث يبرز لقاء المساندة والدعم الايراني للمقاومة، مع مشروع حركة سياسية، ومع تعاطف جماهيري أممي (من الأمة). وهذا في حد ذاته فريد وجديد يخلط كل أوراق التغيير والاصلاح ومنهجياته وأطرافه، ويعطي مذاقا آخر وبعدا جديدا لكل المسارات السياسية القادمة، ويفتح المجال واسعا نحو تحولات مصيرية واستراتيجية لاحقة.

فاذا كانت لايران مكاسب وطموحات ومطامع كما يورد البعض وعلى فرضية الصواب، فماذا ستخسر الجماهير العربية من هذه المساندة، وماذا تخسر المعارضات الداخلية من هذا العون المعنوي وماذا تخسر المقاومة؟ ان اللواذ بالبعد الايراني في التخويف والترويع من انتصار المقاومة ومحاولة اقناعنا من طرف الليبراليين العرب الجدد وبعض فلول اليسار بالهزيمة والانكسار، يبدو مشطا وغير مصيب، ولا يحمل أي بعد استراتيجي و يصب عاجلا أو آجلا في غير مصلحة الأمة، ويسعى الى تعميق صولة الاستبداد الداخلي ودوام أيامه. ان الهدف المنتظر من الهزيمة أو الانتصار يبدو غائبا أو مشوها أو مائعا عند هذا الطرف، ولا يرقى التبرير والتفسير الى مستوى البرهان والدليل الدامغ ويبقى رهين حسابات سياسية ضيقة تعتني بالصولجان والكرسي أكثر من هموم الرعية.

اللعب على الوتر الطائفي

لعل أكثر هذه البراهين والحجج تهافتا وخطورة، والتي استعملها الليبراليون العرب الجدد وفريق من اليسار هو التركيز على طائفية المقاومة وشيعيتها المذهبية، والتلويح بأن هذا الربح ان كان موجودا فهو لا يلمس كل الأطراف ولكن يهم الشيعة دون سواهم ويدعم هيمنتهم ومكانتهم في مقابل تهافت أطراف أخرى وخاصة السنية منها. واستدعى البعض بوعي أو بدون وعي مشاهد رخيصة من الحاضر أو من التاريخ وكأنه يريد أن يمكّن لحرب طائفية لا تبقي ولا تذر. فظهرت ايران الصفوية وعراق الحاضر وخرجت أسهم من جعابها وسقط البعض في الفخ فأرسل المراسيل والفتاوى وخرجت علينا أقوال وأحاديث تخبرنا بأن عهد الروافض لم ينته وأن الشيعة كفرة وأعددنا المشانق ومحاكم التفتيش!

ان أكبر انتصار للمقاومة يبقى في ميدان البناء الفكري والأيديولوجي والتشكل العقلي والوجداني، ولعل سقوط هذا الخندق الفئوي وهذه القطيعة الطائفية، لو يتمكن لمثل منعرجا هاما وكبيرا في علاقة الأمة ببعضها ونهاية أكبر معضلة حلت بها وساهمت على مدى القرون في تفتيت بناها وتهديم وحدتها.

لن نحلم كثيرا، ولكننا نعي أن المشهد العراقي قد أدخل الأمة في دهليز مظلم حيّر الضغائن وأحيا الأحقاد ووطئ مواطن خطيرة تكاد أن تأتي على الأخضر واليابس لو استفحل أمرها، ولقد رأينا بعض الأصوات من هنا وهناك بدأت تدخل هذه اللعبة القذرة بوعي أو بغير وعي والكل يدعو الى مناصريه ومعاضديه من وراء الأكمة والحدود! ولقد جاءت الأحداث الأخيرة لتلطّف من هذا الجو الساخن وهذه الحالة الخطيرة، وأيقظت فجأة لدى الجميع أن الأمة واحدة والعدو واحد، والمشروع واحد وان تعددت السبل. فمشاهد التفاف السنة جمهورا ونخبا ثقافية وحركات سياسية وخاصة اسلامية حول المقاومة ورموزها أظهرت أن الوعي بالتحديات وتحديد الأولويات وفقه المرحلة لم تغادر العقول وان غابت زمنا عن السطح، وهي درجة متقدمة من النضج تستلزم الكثير من الصبر والعمل أمام الاستفزازات والاثارات حتى تتمكن فعلا ونظرا وتشكل مسارا دائما وثابتا.

يكفي المقاومة نصرا وفخرا لو أفلحت في الخروج من هذه المواجهة بضرب الطائفية وتقريب أطراف الأمة من بعضها بعدما عجز التاريخ والحاضر عن رأب هذا الانفصال وفشلت عديد مؤتمرات التقريب رغم جهدها والنوايا الحسنة في ادامة التعايش بين الفرقاء.

ان خطورة ما يلف في كتابات الليبراليين العرب الجدد وأطياف من اليسار حول التخويف من شيعية المقاومة، يظهر في خشيتهم المزعومة من الطائفية، وهم يشعلون جذوتها بوعي أو بغير وعي و هو مطب سيحسب عليهم وليس لهم، وهو سدّ لا نراه ان فتح سوف يترك جانبا دون آخر محميا من الغرق والفناء. وهكذا تتجلى دائما ومجددا غياب النظرة الاستراتيجية والبعيدة المدى في هذا الطرح وعند أصحابه، ويبقى حبيس تقييمات متواضعة ورؤى وتصورات لا تتجاوز أحيانا مشاغل يوم وليلة!

ختاماً

ان بناء التوجهات الكبرى للأمم وتشكّل عقلياتها الفاعلة والمبدعة، يبدأ من هذه اللحظة الحضارية الهامة في حياة الفرد والمجموعة، لحظة الصفر التي تقرر نهاية عهد وبداية آخر، تقرر انتهاء ثقافة ودخول أخرى، تعزم أن ثقافة الهزيمة وعقلية الهزيمة وعهد الهزيمة قد انتهت، وأنها دخلت معابر الانتصار والبناء.

ان ما يبقي هذه الجذوة مشتعلة وصلبة البناء والتشييد وأن لا تتوارى كغيرها في أعماق التاريخ هي ارادة الحياة والمسؤولية الأخلاقية التي يجب أن تحملها الجماهير أفرادا وجماعة تجاه أوطانها وأمتها، وهي مسؤولية تنبع من منظومة قيمية أساسها العمل للصالح العام والهمّ المتواصل بالشأن العام والخير للانسان شرقت أو غربت وجهته، ذلك هو رجل الحضارة، يقول مالك بن نبي رحمه الله: عندما يتحرك رجل الفطرة ويأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة، لا زاد له سوى التراب والوقت وارادته لتلك الحياة.

* رئيس اللقاء الاصلاحي الديمقراطي (تونس)
ktraouli@yahoo.fr ـ www.liqaa.net

السودان: عثرات التحول الديمقراطي

د. علي حمد إبراهيم*

■ توهمت المعارضة الديمقراطية السودانية في الاسبوعين المنصرمين أن الحكومة السودانية ستسمح لها بالخروج في مظاهرات سلمية تعلن فيها رفضها للزيادات في اسعار بعض السلع التي اعلنتها الحكومة في آخر الشهر الماضي استنادا للدستور السوداني المؤقت الذي قامت على اكتافه اتفاقيات السلام التي يجري تنزيلها الى الحياة السياسية في السودان في الوقت الحاضر. ولان المعارضة الديمقراطية السودانية مسكونة بالحس الديمقراطي التقليدي، فقد قدرت أن الحكومة ستلتزم بنصوص الدستور الذي كتبته هي بخط يدها، ولم يكتبه لها أو يمليه عليها أحد من البشر احتراما لما كتبت يداها على أقل تقدير. قلت ان المعارضة الديمقراطية السودانية مسكونة بالحس الديمقراطي التقليدي. فالتاريخ القريب يذكرنا كيف كان حكام الامس ومعارضو اليوم يسمحون لزعيم المعارضة الاسلامية، السيد علي عثمان، أن يقف تحت قبة البرلمان ويشتم الحكومة ورئيسها من قمة راسه حتى أخمص قدميه دون أن يجرؤ أحد على مقاطعته حتى بنقطة نظام! احتراما لقواعد اللعبة الديمقراطية التي كان يؤمن بها حكام الأمس ومعارضو اليوم ايمانا راسخا. ويذكرنا التاريخ القريب كذلك كيف كان حكام الامس ومعارضو اليوم، يسمحون لزعيم المعارضة، علي عثمان، بأن يجوب الحاميات العسكرية في الجنوب بحجة مساندة القوات المسلحة في حربها ضد التمرد دون أن تثير تلك الزيارات شكوكهم. صحيح أنه قد رشح فيما بعد أن تلك الزيارات التي كان يقوم بها زعيم المعارضة الاسلامية للحاميات العسكرية في الجنوب ربما كانت هي التي كتبت نهاية التجربة الديمقراطية الثالثة، وأن السماح بها كان فيه قدر هائل من التفريط القاتل. إلا أن عزاء حكام ذلك الزمن كان وما زال هو أنهم كانوا يرسون ممارسة ديمقراطية صحيحة مهما تكن النتائج، وأنه لم يكن يعلم السرائر إلا الله. هل يبقى اللوم في ذلك التفريط القاتل غصة في حلق المعارضة وهي تعيش اليوم هذه الهجمة من اجهزة يفترض انها اجهزة قومية، ومن حكام يفترض انهم ولاة أمر للجميع، يجب أن يحترموهم، ولا يحقرونهم.

لقد كان حكام الأمس ومعارضو اليوم، يحترمون حكام اليوم عندما كانوا في المعارضة. وتبدو المفارقة كبيرة وحزينة عندما نرى كيف أصبح معارضو اليوم عرضة للهزء والسخرية والتبخيس والتبكيت والتجريح الذي يصفهم به حكام اليوم الذي أقله انهم معارضون فاقدون للبصر والبصيرة ومعارضون بلا جماهير من نفس الناس الذين كانوا يجدون ذلك الاحترام من حكام ذلك الزمن الوضئ عندما كانوا معارضين من وزن الريشة .اما عندما تطلق اجهزة الأمن يدها في قمع المتظاهرين بدعاوى الحفاظ على الامن العام دون أن يكون هناك أي مهدد لهذا الأمن العام، فإنها تعيد القضية القديمة الى مسرح النقاش والجدل مجددا، وأعني بها قضية قومية هذه الاجهزة المفقودة وحزبيتها السافرة الواضحة. اذ يثبت امام أعين الجميع صحة القول ان هذه الاجهزة قد سيست وتحزبت وطمست قوميتها تماما، مما يجعل اعادتها الى سابق عهدها القومي قضية محورية وعاجلة.

ومع تقديرنا لمطالب الجماهير المسحوقة بالغاء الزيادات التي اعلنت في اسعار السلع، إلا انه من العاجل والملح جدا رفع سقف هذه المطالب من هموم البطن الى الهم القومي والمستقبلي العاجل. الهم القومي والهم المستقبلي بالدارجي الفصيح هو عودة الحريات المدنية والسياسية، وتفكيك دولة الحزب الواحد لصالح دولة الوطن الشامل.

وما اشبه الليلة بالبارحة. اذكرها جيدا مظاهرات السكر في آخر عهد الديمقراطية الثالثة. يومها كنت منتدبا بدرجة سفير من وزارة الخارجية الى الأمانة العامة لمجلس الوزراء كرئيس لمكتب التنسيق. واذكر كيف حاصرت الجماهير الغاضبة مكتب رئيس الوزراء وهي تطالبه بالغاء الزيادة في اسعار السكر التي اعلنها الدكتور عمر نور الدائم وزير مالية حكومة الديمقراطية الثالثة لسد فجوة خطيرة في ميزانية الدولة لأن حكومة الديمقراطية تسلمت خزينة خاوية من نظام نميري ومديونية خارجية تقارب العشرين مليار دولار.

واذكر كيف كان البوليس يسير محاذيا للموكب الغاضب، وكيف كان ينظم حركة المرور من حوله حتى وصل المتظاهرون الى مكتب رئيس الوزراء. ومعلوم بالطبع باقي القصة. فقد الغت الحكومة الديمقراطية الثالثة تلك الزيادات نزولا عند رغبة الشارع الشعبي الذي كانت تحترمه الحكومات الديمقراطية، ولا تطلق عليه القنابل او تضربه بالهراوات، ولا تلقيه في غياهب السجون، أو تخيفه بالاشباح!! لا تفعل الحكومات الديمقراطية تلك المثالب السلوكية لأن الديمقراطية هي احسن الانظمة السيئة. ودعونا نقارن وعلى العين دمعة:

ففي حين الغى الدكتور عمر نور الدائم وزير المالية يومها، تلك الزيادات بعد أن قدم مقاربة مدعمة بالارقام عن سبب تلك الزيادات التي كان اهمها استلام النظام الديمقراطي خزينة خاوية ومفلسة ومطالبة بما يقارب العشرين مليار دولار كديون خارجية، بعد أن شرح الدكتور كل هذا، الغت الحكومة المنتخبة الزيادات بعد أن دعت لحوار قومي حول كيفية معالجة أمراض الميزانية الموروثة عن النظام المايوي الطاحن. وزير مالية الانقاذ (أم أقول وزير مالية حكومة الوحدة الوطنية) رفض التراجع عن تلك الزيادات ورفضت حكومته الاستماع لرأي شعبها الذي كان يريد التعبير عنه في مظاهرات سلمية.

دعونا نحيي الديمقراطية التي تصيغ السمع لنبط الشارع الشعبي. ودعونا نحيي الذين يأتي بهم (الصندوق) لأنهم يحنون هاماتهم احتراما للذين ينتخبونهم، ولا يحنونها تنفيذا لارادة البنك الدولي، خصم الغبش العنيد.

ولأننا نعيش في عاصمة العالم، فقد علمنا بأمر هذه الزيادات منذ نيسان/ ابريل الماضي. وعلمنا الاتصالات (والاستشارات) التي دارت في سرية تامة حول الأمر برمته. ونعلم الآن أن في الأكمة بعض القادم الذي يخيف، وربنا يكضّب الشينة.

أخيرا: فلترفع المعارضة سقف مطالبها لتشمل الحريات المدنية والسياسية. فليس بالبطن وحده يحيا الانسان. إنه يحيا بالحريات المدنية والسياسية فبخلاف هذا يكون الانسان حيوانا يعلف.

* سفير سوداني سابق مقيم في واشنطن

عندما توفي النظام العربي الرسمي!

زهير اندراوس*

يوما بعد يوم نلاحظ ان العديد من الرؤساء والملوك والسلاطين العرب باتوا يخشون من الجمهورية الإسلامية في إيران ومن مشروعها النووي، ويذهب البعض إلى الادعاء بان الفرس يحاولون بشتى الطرق والوسائل السيطرة على الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ويقول آخرون إن الهدف الرئيسي من المشروع الإيراني هو نشر الثورة الإسلامية في الدول العربية، وأكثر من ذلك، فان بعض الكتبة المجندين وغير المجندين يشحذون أقلامهم ويؤكدون أن الخلاف التاريخي بين الأمة الفارسية وبين الأمة العربية ما زال راسخا في عقول وقلوب العرب والفرس، ولتدعيم نظرياتهم بقرائن على أرض الواقع يزعمون أن إيران ما زالت تحتل أراضي عربية ولا تنوي التنازل عنها وإعادتها إلى أصحابها، في محاولة بائسة منهم للقول انه لا يوجد فرق بين المطامع الإيرانية التوسعية وبين المطامع التوسعية الإسرائيلية. علاوة على ذلك يؤكد بعض المفكرين العرب، الذين يزعمون تمسكهم بالقومية العربية، انه يتوجب أولا على إيران منح العرب في إقليم الأهواز الحرية والاستقلال. بمعنى أو بآخر فان الفتاوى العربية ضد الجمهورية الإسلامية مغلفة بغطاء قومي عربي، مع أننا نميل إلى الترجيح بان طرح مثل هذه الادعاءات في هذه المرحلة بالذات يؤكد بشكل غير قابل للتأويل بان وراء الأكمة ما وراءها. وهذه الأمور تقودنا إلى السؤال المفصلي: هل يوجد مشروع عربي لنلتف حوله؟ هل المشروع الإيراني أخطر وأدهى وأخبث من المشروع الامريكي والاسرائيلي على الامتين العربية والإسلامية؟ هل تسعى إيران إلى خلق شرق أوسط فارسي؟ هل قيامها بدعم منظمة حزب الله اللبنانية في مواجهتها مع إسرائيل هو مرحلة من مراحل هذا البرنامج الذي ينعته البعض بالشيطاني؟

في هذا المضمار نرى ان من واجبنا الأخلاقي والوطني والقومي تسمية الأمور بمسمياتها وطرح القضايا على الطاولة بجرأة وبدون الاحتيال على أنفسنا بالدرجة الأولى، وبدون التحايل على مصالح امتنا العربية بالدرجة الثانية:

أولاً: تتعرض إيران في هذه الأيام إلى حملة شرسة من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب مشروعها النووي، إننا إذ نعلنها بصورة جلية وواضحة اننا ضد تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة مليئة بهذه الأسلحة الفتاكة، نطالب ما يسمى بالمجتمع الدولي التعامل مع جميع الدول بنفس المعيار، والعمل على نزع أسلحة الدمار الشامل من جميع الدول في الشرق الأوسط، بدون استثناء وبدون تفضيل هذه الدولة على الأخرى، أي أن ما ينطبق على إيران يجب أن يطبق على مصر والسعودية وإسرائيل وليبيا.

ثانياً: في ظل غياب إستراتيجية عربية واحدة وموحدة، تعمل الدول العربية على تطبيقها، فان الوضع الذي آلت إليه الأمة العربية سيتفاقم، وستتحول جامعة الدول العربية إلى جسم هلامي لا تأثير له على مجريات الأمور إن كان ذلك في المجال الإقليمي أو الدولي، وهذا الفراغ الذي بات سيد الموقف سيمنح الفرصة لأعداء الأمة بمواصلة مشروعهم القاضي بتفتيت لحمة الأمة وتحويل الدول العربية نهائياً إلى محميات أمريكية، يحكمها السفير الأمريكي، كما هو الحال في لبنان وفي العراق المحتل.

ثالثاً: للتدليل على عجز الدبلوماسية العربية يكفينا أن نتذكر جميعا بأنه قبل شهر ونيف أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية، السيد عمرو موسى، عن وفاة العملية السلمية، وبقدرة قادر في اجتماع وزراء الخارجية العرب الذي عقد الأسبوع الماضي تقرر التوجه إلى مجلس الأمن لاستصدار قرار جديد يعيد بعض الحياة إلى العملية السلمية الميتة. ولكن من غير المتوقع ان يؤدي هذا التحرك الي اي نتائج ملموسة، لان المزاج العام في المنطقة حاليا هو مزاج حرب وعدم استقرار، مضافا إلى ذلك انشغال الادارة الامريكية بملفات اكثر أهمية، مثل الملف النووي الايراني وسلاح المقاومة الاسلامية (حزب الله) في لبنان وكيفية نزعه. العودة إلى مجلس الأمن من بوابة الضعف والاستجداء هي دليل افلاس النظام العربي الرسمي، وهروبه من القضايا الملحة إلى قضايا ثانوية بهدف الهاء الرأي العام العربي، وايجاد مهام سفر لبعض وزراء الخارجية، وربما الأمين العام للجامعة نفسه، للبقاء بضعة ايام في نيويورك والانطلاق منها في جولات تشمل بعض العواصم الاوروبية والعالمية. وزراء الخارجية العرب لا يريدون ان يفعلوا اي شيء عملي او ملموس، فلم يصدر عن اجتماعهم شيء مفيد، لأنهم لا يريدون اغضاب واشنطن او استفزاز تل أبيب.

ثالثاً: المعادلة بالنسبة للأمة العربية أصبحت واضحة كعين الشمس: في الصراع القائم حالياً بين إيران وأمريكا، على الدول العربية الانحياز إلى صف إيران والتخلص من مشروع الهيمنة الأمريكية على المنطقة، لان هذه هي فرصة تاريخية للدول والشعوب العربية للتحرر من نير الامبريالية العالمية الشرسة التي يقودها اغبى رئيس في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، جورج بوش، وأكثر رئيس أمريكي يحتقر العرب ولا «يعبرهم».

نحن نعلم أن الشعوب العربية برمتها تقف إلى جانب إيران بعكس الأنظمة الفاسدة والديكتاتورية المسيرة من قبل الإدارة الأمريكية، وبالتالي فان استمرار توسع الهوة بين الحكام المستبدين والشعوب المقموعة آخذ بالازدياد، ولا يستغربن احد إذا كانت هذه القضية هي بداية التحرك العربي الشعبي ضد الأنظمة التي تقمع شعوبها من اجل إرضاء واشنطن وحلفائها. وبالتالي نقترح على السيد عمرو موسى أن يعلن وفاة النظام الرسمي العربي، مثلما اعلن وفاة العملية السلمية، بدلا من محاولة التغطية على هذا النظام وعجزه وفشله باختراع مبادرات جديدة غير مجدية.

رابعاً: الرأي العام العربي يريد خطوات جدية من الأنظمة الحاكمة بقوة المخابرات، مثل سحب السفراء او التلويح بورقة سلاح النفط، وفتح المعابر المغلقة امام الفلسطينيين في قطاع غزة، أما غير ذلك من طرح مبادرات التفافية للتملص من مواجهة الواقع المر والمرير، والتآمر والتواطؤ مع الغرب ضد إيران، فهو مضيعة للوقت، وتأكيد جديد على إفلاس الدبلوماسية العربية.

* رئيس تحرير صحيفة «كل العرب» الصادرة في الناصرة

إنسان البعد الواحد: المال يتغول فيما تنتحر القيم

عبدالعزيز محمد الخاطر *

■ عندما ذكر هربرت ماركوز، أحد أعلام مدرسة فرانكفورت النقدية، أن المجتمع الصناعي الرأسمالي خلق للإنسان حاجات وهمية جعلته يصبح جزءاً من نظام الإنتاج والاستهلاك الرأسمالي وبالتالي أبعده عن حاجاته الحقيقية ليصبح بامتياز «إنسان البعد الواحد» فلو نظرنا الى ما نحتاجه اليوم لوجدنا أنه لم يكن كذلك في السابق وما كان لا يمثل ضرورة في السابق أصبح اليوم حاجة ضرورية رغم عدم تبدل الظروف، فالهاتف النقال والمحمول على سبيل المثال لم يشعر أحد بالحاجة إليه إلا بعد اختراعه بمعنى أن وجوده خلق الطلب عليه فهو اليوم حاجة ضرورية للجميع دون شك وغيره كثير من الماديات التي تظهر في الأسواق فالعولمة تخلق الحاجة أولاً ثم تخلق الطلب عليها ثانياً وهكذا.

ولكن تغول رأس المال يجد مقاومة عنيفة في بلدانه فاليسار التقليدي بأطروحاته الاجتماعية بدأ يعود الى الواجهة وقوى المجتمع المدني في أوروبا وأمريكا آخذه في التعاظم في التصدي لهذا التغول الذى صرف الإنسان عن حاجته الحقيقية في مجتمع تسوده قيم روحية ليرمي به في أتون وهم الثراء الفاحش وهي ظاهرة بدأت واضحة في أطراف هذا التمدد الرأسمالي حيث آليات التحكم عن بعد في أيدي المراكز الرئيسية. علينا أن نتذكر أن ما يسمى بالرأسمالية المتوحشة التي تتصدى لها قوى المجتمع المدني والأهلي في الدول الغربية قامت على أعتاب ديمقراطيات صلبة ومع ذلك لا تزال في جنوحها وتغولها واغتيالها للبعد الإنساني، أما ما يحدث في مجتمعات المصب الرأسمالي التي لا توجد فيها أصلاً ديمقراطيات لاجمة لمثل هذا التغول فهي أبعدت الإنسان وحولته ليصبح ترساً في آلية الإنتاج والاستهلاك وذلك فقط ما يحدد وجوده وكينونته.

لقد عانت دول الغرب من ه